اجتهادات
حدث قبل قرنين

يميل الاتجاه الغالب فى تعليقات تلقيتها على الاجتهادين المنشورين فى 15 و24 يونيو الماضي، عن تداعيات جائحة كورونا على ثقة الناس فى العلم، إلى أن استعادة هذه الثقة لن تكون سهلة أو سريعة، وربما لا تُستعاد كاملةً إذا غلبت طفرات الفيروس اللقاحات ضده، أو ظهرت آثار ضارة لهذه اللقاحات أو بعضها فى المدى المتوسط.

وهذا تصور مُقدَّر بطبيعة الحال، ويمكن فهمه وتفهمه. غير أن هذه ليست المرة الأولى التى تُفقد فيها الثقة فى العلم لدى قطاعات من البشر. حدث ذلك مرات من قبل، واستُعيدت الثقة فى قدرة العلم على تحقيق التقدم، وفى أن منافعه الكبيرة تكفى لتحمل الشرور الناتجة عن إساءة استخدامه.

وربما يُذكِّرنا الجدل الراهن حول الثقة فى العلم بما حدث قبل قرنين. فقد شهد عاما 1816 و1817 ما قد يجوز أن نُعدِّه أول اختبار للعلم بعد التقدم الكبير الذى حققه فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، على نحو خلق تفاؤلاً غير مسبوق بالمستقبل.

فقد حدثت انفجارات بركانية مهولة فى جزيرة إندونيسية، أدت إلى قذف حِمم رهيبة قُدّر وزنها بملايين الأطنان، فنشرت سحابة بالغة الضخامة امتدت إلى شرق أوروبا وشمالها، وخيَّم برد فظيع، ودُمرت الحقول والمزارع.

ولم يكن فى إمكان العلم أن يواجه كارثة طبيعية بهذا الحجم. ولم يُعرف فى ذلك الوقت المبكر أنه لا يستطيع فى الأغلب الأعم منع وقوع هذا النوع من الكوارث، ولكنه يقدر على التنبؤ بها وبالتالى تخفيف الأذى المترتب عليها، ثم معالجة آثارها. وكان منطقيًا، والحال هكذا، أن تُفقد ثقة لم تكن قد اكتملت فى العلم. وفى تلك الظروف، كتبت مارى شيلى رواية الخيال العلمى المشهورة (فرانكشتاين) مُستلهمةً أسطورة المسخ الجسدى البرومثيوسية، للتعبير عن نظرتها السلبية إلى العلم الذى مكَّن أحد العلماء من صُنع كائن ضخم من بقايا جثث، ثم فزع عندما وجد الحياة تدب فى هذا الكائن الذى خرج من المعمل يخبط بشكل عشوائى وينشر الرُعب إلى آخر الرواية التى ربما يجوز القول إنها كانت أول تعبير أدبى عن النظرة السلبية إلى العلم.